قراءة في عملية طوفان الأقصى في عامها الأول

محمد حسين مرجان * - محمود سمير الرنتيسي**

* جامعة أنقرة يلدرم بيازيد، تركيا
** جامعة إسطنبول ميديبول، تركيا

ملخص: أدّت عملية طوفان الأقصى في 7 أكتوبر 2023 إلى أحد أكبر الشروخ في تاريخ الشرق الأوسط الحديث، وفتحت حماس بهذه العملية وتبعاتها باب إنهاء حصانة تل أبيب في السياسة العالمية. إن التحدي الجريء الذي مثلته حركة حماس لم يجعل «إسرائيل» أمام خوف وجودي فحسب، بل هزّ بشكل خطير التوازنات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الشرق الأوسط، وأدى إلى ظهور خطوط صدع في النظام العالمي. في هذا التحليل ثمّة تأطير لتفسير طوفان الأقصى، وبيان سبب إحداثه هذا التمزق الضخم، وأهم مؤشرات الواقع الحالي واتجاهات المستقبل في الحالة المصاحبة لمشهد طوفان الأقصى، والدوافع التي ستفتح الباب أمام بناء نظام جديد.

الكلمات المفتاحية: طوفان الأقصى، 7 أكتوبر، غزة، «إسرائيل»

Rethinking the Al-Aqsa Flood Operation in its First Year

MUHAMMED HÜSEYİN MERCAN* MAHMOUD ALRANTİSİ **

ORCID NO: 0000-0003-4699-0700 ORCID NO: 0000-0002-2213-2114

* Ankara Yıldırım Beyazıt University, Türkiye
** Istanbul Medipol University, Türkiye

ABSTRACT: *The Al-Aqsa Flood Operation on October 7, 2023, led to one of the largest rifts in the history of the modern Middle East. Globally, Hamas opened the door to ending Tel Aviv's immunity in world politics. The bold challenge posed by Hamas not only made Israel face existential fear, but also seriously shook the political, social and economic balances in the Middle East and led to the emergence of fault lines in the global system. In this analysis, first, a framework was provided to explain the Al-Aqsa Flood and why it caused this huge rupture, then the reasons for the expectation that ended the political equation in the Middle East and in the global system were discussed, The most important current indicators and future trends in the situation accompanying the Al-Aqsa flood scene, as well as the incentives that will open the door to building a new system.*

Keywords: *Al-Aqsa Flood, October 7, Gaza, Israel.*

2024-(4/13)
9 - 24

Received Date: 18 / 10 / 2024 • Accepted Date: 22 / 11 / 2024

DOI:10.36360/1560-013-004-002

مدخل

مضى أكثر من عام على عملية طوفان الأقصى التي أطلقتها كتائب عز الدين القسام الجناح العسكري لحركة المقاومة الإسلامية (حماس) ضد الأراضي المحتلة صباح 7 أكتوبر 2023، ارتكب فيه الاحتلال الإسرائيلي إحدى أعظم عمليات الإبادة الجماعية، وشهدت فيه غزة أعمق معاناة في تاريخ البشرية. ارتكبت «إسرائيل» المجازر الكبرى أمام عيون العالم أجمع، وواصلت إستراتيجيتها التوسعية العدوانية، ولم يظهر المجتمع الدولي الإرادة الكافية لإنهاء هذا العدوان، فازداد حجم الكارثة أضعافًا مضاعفة. وبحسب الأرقام الرسمية، قتل جنود الاحتلال خلال هذه الفترة أكثر من 40 ألف شخص، واتخذت الإدارة الصهيونية جميع الخطوات بشكل جذري لضم قطاع غزة.

وواصلت «إسرائيل» التي انتهكت القانون الدولي والقانون الإنساني وقواعد حقوق الإنسان مرات لا تُحصَى- أعمالها غير الإنسانية بدون مراعاة أيّ قواعد أخلاقية وقانونية، بدعم مفتوح من القوى الغربية الرئيسة بقيادة الولايات المتحدة. من خلال عرقلة كل المبادرات الدبلوماسية، وبذل أقصى الجهود لتوسيع حدود الحرب- قام بنيامين نتنياهو وأعضاء حكومته الصقور بجرّ المنطقة إلى دوامة عميقة من عدم الاستقرار، من خلال العدوان الذي حاول إسباغ الشرعية عليه بمرجعيات دينية. إن الإدارة الصهيونية، التي تستهدف المناطق الزراعية وحظائر الحيوانات والبنى التحتية كافة، والمباني كالمستشفيات ودُور العبادة والمدارس ومراكز الرعاية من أجل القضاء على أي علامة على الحياة في غزة- أصمّت آذانها عن كل النداءات، وأظهر الواقع بوضوح أن دولة الاحتلال الإسرائيلي أكبر تهديد لسلام البشرية ومستقبلها.

إن نضال كتائب القسام بنموذج جديد للمقاومة ضد عقود من الاحتلال والقمع أدى إلى أحد أكبر التصدعات في الشرق الأوسط الحديث. كسر هذا التطور الذي هزّ بشدة أجندة الجهات الفاعلة الإقليمية والعالمية- كلّ الروتين المتعلق بفلسطين ومستقبل الأراضي المحتلة، وخلق في الوقت نفسه أساسًا من شأنه أن يسمح بإقامة نظام جديد في المنطقة مع «إسرائيل»، من خلال خطوط الصدع التي أثارتها، فالعملية التي شنتها المقاومة في غزة بإرادتها ومبادرتها فتحت الباب أمام عملية ستظل آثارها الإقليمية والعالمية محسوسة سنوات طويلة، على الرغم من الدمار، والإبادة الجماعية التي لا تزال «إسرائيل» ترتكبها.

إطار عمل طوفان الأقصى

يمكن وصف هذه العملية غير المتوقعة، التي نفذتها وحدات خاصة تابعة لكتائب القسام، برًّا وبحرًا وجوًّا في وقت واحد، بأنها أكبر صدمة واجهتها «إسرائيل» منذ تأسيسها. ويشكّل هذا التحدي القوي للمقاومين في غزة نقطة تحول ثورية على صعيد التشكيك في الاستثناء الإسرائيلي في النظام العالمي، وتدمير التصورات التي بنتها الإدارة الصهيونية. ونظرًا لتصاعد الغضب العالمي تجاه «إسرائيل» خلال عام من الحرب، يلاحظ أن مقاومة جماهيرية تشكلت ضد إستراتيجية تل أبيب المتمثلة في جعل احتلالها ومجازرها أمرًا طبيعيًّا. وفي هذا السياق يمكن القول: تواجه الحكومة الصهيونية -نتيجة طوفان الأقصى وصبر أهل غزة وإرادتهم الفائقة- خطرَ فقدان تفوقها النفسي والمعرفي. بالإضافة إلى أن هذه العملية التي هزت ميزان السياسة الإقليمية، ستسلط الضوء على السنوات القادمة؛ لأنها تكشف ضعف النظام العالمي وجموده وعدم كفاءته في وقف الإبادة الجماعية.

ورغم أن «إسرائيل» واجهت دولاً عربية مرارًا وتكرارًا في الماضي، فإن هذا المستوى من المقاومة من جانب القطاع الذي ظلّ محاصرًا مدة سبعة عشر عامًا- قد هزّ بلا شكّ رموز تل أبيب. فالحكومة الصهيونية، التي خلقت أسطورة قوية على الساحة الدولية بشبكتها الاستخباراتية القوية وقدراتها العملياتية، سقطت في موقف العاجز أمام طوفان الأقصى والعقل الإستراتيجي لحركة حماس وكتائب القسام. وبالنظر إلى النجاح الكبير الذي حققته تل أبيب في اغتيالات طهران وجنوب لبنان وبيروت ودمشق، خصوصًا في الأشهر القليلة الماضية، يبدو أن النظام الذي بنته حماس يتمتع ببنية صلبة لم تسمح لدولة الاحتلال باختراقه. ويمكن اعتبار الصعوبة التي واجهتها أجهزة مخابرات تل أبيب مثل الموساد وأمان والشين بيت في منع مقتل وإصابة عدد كبير من عناصر جيش الاحتلال بعملية 7 أكتوبر وتحديد أماكن الأسرى في غزة بمثابة ضربة كبيرة وجهتها حماس للبنية الأمنية الإسرائيلية. وبناء على ذلك، فمن المناسب القول: إن طوفان الأقصى جرى التخطيط له في إطار يهدف بالدرجة الأولى إلى القضاء على التفوق النفسي للإدارة الصهيونية في مجال الاستخبارات والأمن.

عندما نفحص العمليات والتطورات التي تلت 7 تشرين الأول (أكتوبر) 2023م عن كثب، لا يمكن التغاضي عن أن قوة خطاب الهيمنة الإسرائيلية على الساحة العالمية قد ضعفت بشكل كبير. أدى ضغط اللوبيات الصهيونية في وسائل الإعلام والثقافة والأوساط الأكاديمية إلى نشر المعلومات التي تنتجها تل أبيب وقبولها على أنّه أمر مسلَّم به. لكن بعد طوفان الأقصى، أدى تناول الرأي العام العالمي للقضية بوعي جديد إلى فقدان قيام

دولة الاحتلال، وبخاصة أدوات الدبلوماسية العامة/ الهسبرة، وظيفتها. ورغم أن القوى الغربية السائدة، التي لا تريد أن يتزعزع النظام الذي أُسِّس بعد الحرب العالمية الأولى لم تسحب دعمها للسياسات العدوانية لحكومة نتنياهو على مستوى الدولة- إلا أن الزيادة الجذرية في عدد المعارضين للحرب تظهر أن استراتيجية الاحتلال الصهيوني في الرأي العام قد فقدت التفوق الخطابي الذي تمتعت به دائمًا قبل 7 أكتوبر.

إن تفوّق «إسرائيل» في الخطاب على الساحة العالمية منذ تأسيسها كان مبنيًّا على رواية ضحايا المحرقة، وقد تمكن الحكام الصهاينة من خلق مساحة واسعة من الشرعية في العالم الغربي بالإشارة إلى اليهود الذين تعرّضوا للإبادة الجماعية من أجل تحقيق أهدافهم الثيوسياسية. إن المديونية التي يشعر بها العالم الغربي، الذي يأسف للمحرقة، دفعته إلى تجاهل جميع أعمال «إسرائيل» غير القانونية وغير الأخلاقية. ومن خلال الاستفادة الكاملة من هذا الوضع، وصفت إدارة تل أبيب أي معارضة فردية أو جماعية ضد دولة الاحتلال بأنها معادية للسامية، ومنعت ظهور صوت مخالف في الساحة الدولية، لكن أهل غزة، وعلى وقع طوفان الأقصى علّموا العالم أجمع بوضوح أن التمرّد على أعمال دولة الاحتلال غير المشروعة لا يعني معاداة السامية. فتحت هذه العملية، التي تحوّل فيها ضحايا المحرقة إلى وحوش وارتكبوا أعمالاً غير إنسانية- الباب أمام فترة اتخذ فيها الخطاب الفلسطيني شكلاً أكثر هيمنة.[1]

بعد الانتفاضة الأولى عام 1987، بدأ الشعب الفلسطيني القتال ضد الغزاة بمنظور المقاومة الجماعية، وتمكن من تحييد أحد أهم أسلحة «إسرائيل» بالأدوات التي استخدمتها، وبالخطاب الذي أنتجته. إن فقدان تل أبيب لاحتكارها إنتاج المعلومات أدّى إلى قيام دولة فقدت شرعيتها وحججها في نظر المجتمع الدولي. وهذا دليل واضح على أن طوفان الأقصى جرى تنفيذه بمنظور أضر بشدة بالتفوق الخطابي لدولة الاحتلال واحتكارها للسيطرة على المعلومات.

إن تحرك مقاومة غزة في 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023م ضد «إسرائيل» التي وسّعت حدود احتلالها بشكل متهوّر ولم تتورع عن ذبح الناس بدعم من القوى الغربية المهيمنة- خطوة إستراتيجية لا يمكن تقييمها إلا من خلال انتصار مادي على أرض الواقع. وإدراكًا منها أن الحصار المفروض على غزة منذ سبعة عشر عامًا لن يُرفَع فجأة أو لن يتحقق تحرير القدس على الفور- ركزت حماس حينها على النصر في العقول والقلوب، وفي هذه العملية، حيث يفهم العالم أجمع الوجه الحقيقي لـ«إسرائيل» بدون أي استثناءات، يُفهَم مدى جدوى إستراتيجية المقاومة وعقلانيتها في غزة. وحتى لو لم يُغيّر الوضع

الراهن في فلسطين في المستقبل القريب، فإن الواقع الجديد الذي خلقه طوفان الأقصى قد فتح الباب أمام عملية ستؤدي إلى تغييرات جذرية على المدى المتوسط والطويل؛ لهذا السبب، يُلاحَظ بوضوح أن الدافع الأساسي وراء عدوان «إسرائيل» اللامحدود ينبع من الخوف من فقدان حصانتها ومكانتها الاستثنائية وتفوق خطابها المهيمن الذي ترسخ على مدى عقود.[2]

إن الدافع الأساسي وراء عدوان «إسرائيل» اللامحدود ينبع من الخوف من فقدان حصانتها ومكانتها الاستثنائية وتفوق خطابها المهيمن الذي ترسخ على مدى عقود .

ورغم أن «إسرائيل»، التي ربما تواجّه مثل هذا الخوف الوجودي الكبير لأول مرة في تاريخها، تواصل هجماتها العنيفة في غزة والضفة الغربية، ومؤخرًا في جنوب لبنان بعد طوفان الأقصى- فإن الوضع الجديد الذي نشأ ليس جيدًا بالنسبة لها، سواء على المستويات السياسية أم الاجتماعية، وتظهر الدلائل على أن دولة الاحتلال ستواجه تحديات جديدة. وقد حققت مقاومة غزة، التي دمرت الأساطير النفسية والمعرفية التي خلقتها الإدارة الصهيونية، انتصارًا كبيرًا في هذا الصدد. وهنا فإن أهم مكاسب أثر طوفان الأقصى الذي سيستمر لسنوات قادمة- هو أنه زاد من هشاشة قيام دولة الاحتلال، وهزّ شعور الثقة لدى مواطنيها بدولتهم. بالإضافة إلى ذلك، فإن التأثيرات الإقليمية والعالمية لطوفان الأقصى هي نذير بتحولات نظامية.[3]

الشرق الأوسط بعد ٧ أكتوبر: نهاية السياسة المتوقّعة

كان لطوفان الأقصى والتحدي الشجاع والإستراتيجي لمقاومة غزة بقيادة كتائب القسام- وقعٌ صادم على الكتلتين الرئيستين في الشرق الأوسط وعلى دولة الاحتلال. عندما وقع الرئيس الأمريكي السابق دونالد ترامب على قرار نقل السفارة الأمريكية في دولة «إسرائيل» من تل أبيب إلى القدس في ديسمبر 2017، اتّخذت خطوات جادة في العالم العربي في إطار التطبيع مع الحكومة الصهيونية. إن تحرّك الرئيس الأمريكي السابق ترامب بالسماح لدولة الاحتلال بالاندماج بشكل أكبر في العالم العربي من خلال اتفاقيات أبراهام ومبادرته للحد بشكل كبير من حقوق الفلسطينيين في الوجود على أرضهم من خلال صفقة القرن- أظهر العلامات الأولى على أن الوضع الراهن في المنطقة سيهتزّ بشدة. وعلى الرغم من وضع خطة صفقة القرن على الرفّ عندما خسر ترامب انتخابات الولاية الثانية وسلم السلطة إلى جو بايدن، إلا أن علاقات تل أبيب

المتزايدة مع العالم العربي كانت تعني أن إشارات الخطر كانت تُدَقّ بالنسبة لمستقبل فلسطين.

تطورت هذه الخطوات التي هزّت المعادلة السياسية في المنطقة إلى بعد آخر مع بدء عملية طوفان الأقصى. واجهت الأنظمة العربية تحدّيًا لا يقل خطورة عن توسع نتنياهو وحكومته في مواجهة هذا النضال الجماعي الجديد، الذي أشعلته الإرادة الحرة للمقاومة في غزة. ورغم أن استمرار الحرب والحصار في غزة، والذي عدّته «إسرائيل» أمرًا مفروغًا منه لسنوات، أثارا غضب المجتمعات العربية، إلا أنهما لم يدفعا أنظمتهما على اتخاذ الإجراءات اللازمة. إن تسارع العودة إلى الوضع القديم بعد عام 2013، وبخاصة بعد الانتفاضات التي شهدها العالم العربي، وانشغال الشعوب العربية بقضاياها الداخلية- أسهم في ظهور حالة عامة من عدم الحساسية تجاه انتهاكات الإدارة الصهيونية في فلسطين. ومع ذلك، في صباح يوم 7 أكتوبر 2023م أحدثت العملية التي نفذها المجاهدون في غزة في الأراضي المحتلة تعبئة جديدة في المجتمعات العربية. ويمكن القول: إن حالة الارتياح التي كانت سائدة سنوات عديدة، حلّ محلّها قلق كبير منذ الدقائق الأولى لطوفان الأقصى.

واجهت غالبية الأنظمة العربية، التي يعتمد بقاء أنظمتها على الدعم الذي يُقدّمها لها العالم الغربي، خوفًا وجوديًّا مشابهًا للانتفاضات الشعبية عام 2011 في مواجهة هذه الانتفاضة الجديدة التي بدأت في غزة. إن صمت القادة العرب وتقاعسهم في مواجهة نتنياهو وفريقه الذين شرّعوا المجازر في غزة من خلال الإشارة إلى النصوص المقدسة اليهودية وجهودهم لتوطيد مستوطنيهم- أدّيا إلى تراكم الطاقة الاجتماعية في المنطقة. ورغم أن الكارثة التي سببتها الإبادة الجماعية تتزايد يومًا بعد يوم، فإن إخفاق القادة العرب في إظهار الإرادة اللازمة لم يؤدّ إلى تعميق الألم في غزة فحسب، بل أدّى أيضًا إلى ولادة عملية اتخذت فيها هذه الأنظمة إجراءات إضافية لقمع مواطنيها ضد احتمال حدوث ذلك.

كان دور الدول العربية الرائدة في المنطقة، باستثناء قطر ومصر في قيامهما بدور فعال في مفاوضات وقف إطلاق النار لإنهاء الهجمات الإسرائيلية، بعيدًا عن اتخاذ إجراءات رادعة ضد تل أبيب. إن الاعتقاد بأن نتنياهو سينهي الهجمات من خلال الإقناع لم يمنع انتهاء الإبادة الجماعية في غزة فحسب، بل كشف مرة أخرى عجز الزعماء العرب في مواجهة دولة الاحتلال. إن استراتيجية التوسع التي طرحها نتنياهو وأعضاء حكومته الصقور من منظور ثيوسياسي، على الرغم من أنها تشكل تهديدًا لسلامة أراضي جزء

كبير من الأنظمة العربية في المنطقة- إلا أن هذه الدول لا تنحاز إلى أي طرف يقوم بالقتال ضد «إسرائيل»، وتقوم بمهمة تسهيل توسيع حدود الاحتلال في فلسطين، وفي الوقت نفسه تقوم بتقليص نقاط الضعف السياسية والاجتماعية في المنطقة وتعميقها من الداخل. وفي مواجهة الواقع الجديد بعد طوفان الأقصى، تتعامل الأنظمة العربية اليوم مع حسابات إستراتيجية حول تأثير المأزق الذي ستجد نفسها فيه. وفي هذا السياق تبرز عواقب احتمال الصراع مع الكتلة الغربية بقيادة الولايات المتحدة إذا اتخذت هذه الدول موقفًا ضد «إسرائيل»، والضغوط الاجتماعية الجديدة، والتهديد الخارجي الذي سيخلقه تزايد التوسع الصهيوني في غزة والضفة الغربية.

إن البنية الأخرى في الشرق الأوسط التي تزعزعت حالةُ استقرارها مع بداية طوفان الأقصى- هي الكتلة التي تُسمّى «محور المقاومة» التي تتكون من إيران ووكلائها في المنطقة. حاول النظام في طهران، الذي سرّع سياسة التوسع والنفوذ في المنطقة بعد الثورة الإسلامية في إيران عام -1979 خلق أساس للشرعية من خلال خطاب المقاومة ضد الولايات المتحدة و«إسرائيل» من أجل خلق مجال للمناورة في المنطقة السُّنّية، وألا

تفقد السيطرة على وكلائها. بدأت إيران، التي زادت اتصالاتها مع المقاومة الفلسطينية منذ أوائل التسعينيات، التي كانت تهدف إلى الحصول على مكانة فريدة في العالم الإسلامي بدعمها- في إنتاج سياسة خطابية قوية، خاصة من خلال الاستفادة من تقاعس الأنظمة العربية أمام تل أبيب.

استغلت إيران، التي نفّذت إستراتيجية محكمة مع الولايات المتحدة في الميدان بعد غزو العراق عام 2003، فجوات الفرص التي نشأت بعد انهيار نظام صدام، وأنشأت مجالاً لنفوذ جديد وقوي في العراق وخارجه. أدى نجاح حزب الله في جنوب لبنان ضد «إسرائيل» في يوليو/ تموز 2006 إلى أن يجد خطاب محور المقاومة في طهران استجابة عالمية. أظهرت إيران، التي أبدت معارضتها المطلقة للولايات المتحدة و«إسرائيل»، ولكنها لا تمتنع عن اتخاذ خطوات براغماتية تتماشى مع الواقع الميداني- ممارسات سياسية خارجية نشطة من خلال استغلال القضية الفلسطينية، وبخاصة المقاومة في غزة. إن الاعتقاد بأنه لن تأتي أي خطوة من العالم السُّنّي من شأنها أن تهز أرضية المقاومة التي تتبناها طهران ووكلاؤها- سهّل على إيران وعناصر أخرى اتباع سياسة النشاط الخطابي مع التقاعس الفعلي. كما شكلت العملية التي شنتها كتائب القسام صباح 7 أكتوبر تحديًا لعناصر محور المقاومة المتمركزة في طهران.

وخلافًا لكل الادعاءات، فإن طوفان الأقصى، الذي بدأته حماس بإرادتها وبمبادرة وموافقة على مستوى الإدارة العليا، وضع إيران ووكلاءها في مأزق مواجهة ادعاءاتها بهذه الجدية لأول مرة. وقد أثارت هذه البنية الإيرانية التي أعلنت في كل فرصة أن النظام الصهيوني لا بد أن يزول- عدوان «إسرائيل» غير المحدود؛ بسبب إحجامها عن التدخل في عملية بدأت بشكل مستقل عنها، ومن ناحية أخرى، واجهت إيران واقع دفع ثمن باهظ لعدم التحرك المبكر. في واقع الأمر، على الرغم من أن حزب الله في جنوب لبنان كان يعلم بوضوح أنه الهدف التالي بعد غزة، فإن حرب الهجوم المحدودة والمسيطَر عليها ضد دولة الاحتلال في إطار قواعد الاشتباك عام 2006 انتقلت إلى مرحلة مختلفة عندما حوّل نتنياهو اتجاهه نحو لبنان. وهذه الإستراتيجية التي نفّذها الأمين العام للتيار حسن نصر الله، انسجامًا مع طلب طهران أو حساباته الخاصة- أسفرت عن القضاء على نصر الله ومعظم المستويات التنفيذية والقيادية في التنظيم، عبر هجمات شنها جيش الاحتلال ضد مقاتلي التنظيم.

واجهت إيران ووكلاؤها، الذين تأخروا في تلقي الرسائل اللازمة بعد مقتل العقل العسكري لحزب الله فؤاد شكر في بيروت، واستشهاد زعيم حماس إسماعيل هنية في

طهران- تهديدًا وجوديًّا أكبر بكثير في مواجهة التحديات الإسرائيلية. وقد وصل البطء في اتخاذ الإجراءات في الوقت المناسب إلى نقطة أدّت اليوم إلى احتلال الجيش الصهيوني جنوب لبنان، وقد يؤدي ذلك إلى حرب كبرى مع تل أبيب؛ لمنع إيران من إهدار استثماراتها السياسية الطويلة الأمد في الشرق الأوسط.

إن قيام حركة الحوثي/ أنصار الله في اليمن، من بين عناصر محور المقاومة، بمهمة فاعلة منذ الأشهر الأولى لطوفان الأقصى، يجب أن يُنظَر إليه في إطار معايير أخرى غير النفوذ الإيراني. ويمكن تعريف الالتزام الصادق للشعب اليمني بالنضال الفلسطيني بأنه القوة الدافعة الأولى للعمل في هذه العملية. ثانيًا، لا ينبغي أن ننسى جهود الحوثيين للحصول على الشرعية في الشرق الأوسط من خلال دعم المقاومة في غزة. ويريد الحوثيون، الذين سيطروا على العاصمة صنعاء وجزء كبير من البلاد منذ عام 2015- الحصول على مكانة مثل حزب الله في العالم العربي. ولم يتردّد الحوثيون، الذين أُتيحت لهم فرصة مهمّة لتحقيق توقعاتهم بالاعتراف/ الشرعية في اتباع إستراتيجية أكثر أصالة مقارنة بطهران والوكلاء الآخرين بعد 7 أكتوبر/ تشرين الأول. إن تكثيف «إسرائيل»

هجماتها على جنوب لبنان في الأيام الأخيرة، وإشاراتها إلى أن محاولاتها لتنفيذ عمليات برية محدودة ضد جنوب لبنان ستتحول إلى عملية شاملة- يكشفان أن التوتر في المنطقة سوف يتصاعد، وهذا سيزيد من تأثيره في النظام العالمي. كما أن تشكيل جبهات جديدة خارج غزة بعد طوفان الأقصى والحرب الإيرانية الإسرائيلية المتوقّعة لا يؤدي إلى تعميق الهشاشة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الشرق الأوسط فحسب، بل يقضي أيضًا إلى حد كبير على القدرة على التنبؤ بمستقبل المنطقة.

التأثير العالمي لطوفان الأقصى: خطوات التحول المنهجي

كان إعلان محمد الضيف قائد كتائب القسام عن تسمية العملية التي انطلقت في الأراضي المحتلة بـ«طوفان الأقصى»- أهم مؤشر على أن الباب مفتوح أمام عملية مطابقة لمسمّاها. وتحمل هذه الخطوة الجديدة، التي جاءت في إشارة إلى قدسية المسجد الأقصى والقدس، دلائل حقبة جديدة على الساحة العالمية، كما تحمل انعكاسات وتأثيرات على مستوى المنطقة. إن النضال الذي خاضه بضع عشرات الآلاف من المجاهدين ضمن تسلسل هرمي صارم تامّ الولاء للقيادة الرئيسة لحماس- شكل تحدّيًا كبيرًا للنظام العالمي نفسه. انتقلت الأوضاع بهذه العملية، التي نشأت فيها خطوط صدع مهمة إلى مرحلة أصبحت فيها المناقشات حول إمكانية وجود نظام بديل ملموسة، بينما في الوقت نفسه، بدأ ظهور واقع سياسي عالمي جديد تظهر فيه عوامل مثل الدّين، أو بكلمات أخرى، المقدّس، بشكل متزايد في سرديات العلاقات الدولية العلمانية. وفي هذا الصدد، يشكل تأثير طوفان الأقصى في السياق العالمي نقطة تحول تاريخية من حيث الكشف عن أزمة النظام الدولي، وقصور المنظمات الدولية، وانتهاء حصانة «إسرائيل» على الساحة العالمية، وصعود الدين بوصفه نموذجًا سائدًا في العلاقات الدولية.

وبينما شهدنا إبادة جماعية نادرة في تاريخ البشرية بعد 7 أكتوبر، إلا أنه من الملاحظ أيضًا أن أسس النظام العالمي قد اهتزت بشكل خطير. فقد اختفى حرفيًّا في هذه العملية الإيمان باستدامة النظام الدولي الذي بنته السياسات الأوروبية المركزية مع المنظور الاستعماري التقليدي. خلال فترة العام الذي قامت فيه «إسرائيل» بالدوس على معايير مثل حقوق الإنسان وحقوق المرأة وحقوق الطفل والحقوق البيئية- لا يمكن أن يُتصوَّر أنه مرّ من دون أن يلاحظ الجميع أن الجهات الفاعلة العالمية ابتعدت عن اتخاذ إجراءات بسبب المحفزات النظامية بل أنها طورت من وسائل التضليل واستراتيجيات لكسب الوقت لاستمرار الوضع الراهن. في هذه العملية التي أفلست فيها مجموعات المفاهيم السياسية والقانونية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ازدادت الحاجة إلى أساليب قراءة

بديلة ونماذج جديدة أكثر من أي وقت مضى. كما أصبح مفهومًا أنه من غير الممكن الإبقاء على نظام تهيمن عليه القوى الغربية على محور العدالة والقانون الذي يحدّد أن ما تقوم به الدولة التي تحتل الأراضي وترتكب المجازر ضد الناس هو «دفاع عن النفس» وفقًا للشريعة اليهودية، وأن ما يفعله المقاومون الذين يدافعون عن أراضيهم هو «إرهاب» وفق الشريعة الإسلامية. إن طوفان الأقصى، الذي بدأه المقاومون في غزة، هزّ أركان النظام بشكل خطير، وفتح الباب أمام ولادة واقع جديد، يستلزم إعادة هيكلة النظام العالمي في السنوات المقبلة، بتأثير يتجاوز الحدود.

والحقيقة الأخرى التي أصبحت أكثر وضوحًا مع طوفان الأقصى هي أن قصور المنظمات الدولية أصبح مفهومًا الآن. إذ كشف إخفاق الأمم المتحدة وغيرها من الهيئات في اتخاذ الإجراءات اللازمة لوقف الإبادة الجماعية في غزة بوضوح عن ضرورة إجراء إصلاح جذري لهذه المؤسسات. إن منع الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش من دخول غزة، أو إعلان «إسرائيل» أن غوتيريش «شخص غير مرغوب فيه»، أظهر أن الأمم المتحدة ليس لديها سلطة فرض العقوبات، ولا يمكنها وقف عدوان الدولة المحتلة.

وعلى نحو مماثل، وبينما كان الناس يفقدون أرواحهم بسبب الجوع والمرض في غزة، فإن إخفاق المنظمات الدولية في اتخاذ خطوة إلى ما هو أبعد من تل أبيب كشف عن أن بناء عالم عادل ليس في الإمكان في ظل هذه الهياكل. إن هذا الإخفاق كشف عن افتقار المنظمات الدولية إلى القدرة وقوة فرض العقوبات؛ لهذا السبب، خلق الوضع الجديد بعد طوفان الأقصى بيئة يمكن فيها مناقشة مستقبل المنظمات الدولية بشكل جدي، ومناقشة بناء مثل هذه المؤسسات من منظور جديد.

ومن تأثيرات مقاومة غزة التي تخرق القواعد وتقلب الأوضاع رأسًا على عقب، الجانب الذي يجعل الاستثناء الإسرائيلي غير طبيعي، وينهي إلى حد كبير حصانة دولة الاحتلال. وبينما لم يكن من المتوقع في السنوات الماضية أن تتحقق محاسبة تل أبيب أو محاكمتها أمام المحاكم الدولية على أي من أفعالها، إلا أننا نجد هذه الحصانة انتهت مع القضايا المرفوعة في كل من محكمة العدل الدولية والمحكمة الجنائية الدولية بعد طوفان الأقصى. ومن الواضح أنه حتى لو لم يتم تنفيذ قرارات المحكمة ضد «إسرائيل»، فإن ذلك سيعني فجوة تاريخية، وسيوفر فرصة للتشكيك بقوة أكبر في شرعية تصرفات تل أبيب في السنوات التالية. وفي هذا الصدد، لا ينبغي أن ننسى أن أكبر مكسب لـ7 أكتوبر، وأكبر انتصار لمقاومة غزة، كان تدمير مكانة «إسرائيل» الاستثنائية في النظام العالمي، وتدمير حصانتها، رغم كل الخسائر.

إن السبب الرئيس الآخر في النظام العالمي مع طوفان الأقصى هو أن العالم كلّه رأى أن طريقة ممارسة السياسة مع الإشارة إلى المقدّسات آخذة في الارتفاع. وفي هذه العملية، حيث اهتزّ مفهوم العلاقات الدولية العلمانية، وتحقق تسجيل أن «إسرائيل» دولة ثيوقراطية بوضوح. وتلك الدوائر التي حاولت حتى الآن التلاعب وتقديم أهداف الإدارة الصهيونية بطرق مختلفة- أدركت الآن إلى حد كبير حقيقة أن تل أبيب لا تنتهج سياسة خارجية تعتمد على الخطاب الأمني.

وقد أظهرت «إسرائيل»، التي بذلت جهدًا لتسريع الوقت بالإشارة إلى اللاهوت اليهودي، أنها لن تتراجع عن الإستراتيجية العدوانية التي اتبعتها للسيطرة على فلسطين أولاً ومن ثم «الأرض الموعودة» بين النيل والفرات مع الاستناد إلى نصوص مرجعية مثل نبوءة إشعياء وغيرها. وعلى النقيض من رؤية دولة الاحتلال للنظام الذي يتمحور حول السياسة الدينية اليهودية، فإن النهج الأخروي للديانات الإبراهيمية الأخرى المستندة إلى القدس يجعل من المستحيل إنهاء الصراع في المنطقة بحجج علمانية. تظهر هذه القضية أن الدِّين، الذي جرى تجاهله بشكل عام في العلاقات الدولية حتى الآن، سيكون

الآن أكثر فعالية في المشهد السياسي، ويتطلب من جميع الدول التي لديها رؤية ومطالبة بالنظام أن تأخذ السياق الديني في الحسبان في هذه العملية.

طوفان الأقصى بوصفه ظاهرة متجددة

بالنظر إلى ما حققته عملية طوفان الأقصى التي حملت بعدًا مفاجئا ومباغتًا للاحتلال، وبالرغم من كم الدمار الهائل والوحشية الكبيرة التي قامت بها دولة الاحتلال الإسرائيلي مدعومة بشكل رئيس من الولايات المتحدة وعدد من الدول الأوروبية، فإنه حتى هذه اللحظة لا يوجد مكسب إستراتيجي لـ«إسرائيل» أو تغيير لما فرضته عملية طوفان الأقصى من معطيات جديدة، ومن كسر لمعادلات في المنطقة، وأولها فكرة تعدد الجبهات التي تعمل دولة الاحتلال ضدها، وعدم قدرتها على الحسم في أي منها، بل والمخاطرة بفتح مزيد من الجبهات، بالإضافة إلى ما يرافق ذلك من تداعيات على مستوى انخراط مزيد من الفئات ضد دولة الاحتلال، وفي التضامن مع المقاومة والشعب الفلسطيني[4] وهذا يزيد التهديدات على البنية الإسرائيلية الهشة التي يُعَدّ افتقادها للعمق نقطة ضعف لا يمكن الهروب منها.

ويمكن هنا الإشارة على سبيل المثال إلى ما كتبه الكاتب الصهيوني رون بن يشاي في صحيفة يديعوت أحرونوت: «على الرغم من الإنجازات العسكرية في القطاع، وسيطرة الجيش على ممرّين إستراتيجيَّين، نتساريم وفيلادلفيا، فإن رئيس الحكومة والمنظومة الأمنية ليس لديهما، حاليًّا، خطة واضحة لتقويض السيطرة المدنية لـ«حماس»، التي تُعَدّ هدفًا مهمًّا من أهداف الحرب. المطلوب تفكير خلاق ومرونة غير متوفرَين لدى الحكومة الحالية، ولدى رئيسها، لأسباب سياسية وشخصية...» وهذا يشير بوضوح إلى أن دولة الاحتلال بعيدة عن تحقيق الأهداف الإستراتيجية في غزة.[5]

حملت عملية طوفان الأقصى معاني التجدد في كل مراحلها بمعنى أنه حتى لو توقف العدوان الإسرائيلي في غزة من طرف واحد فإن ما أحدثته عملية طوفان الأقصى يشبه ذروة بركان، وهذا البركان يؤثر في جميع القضايا التي تمس الاحتلال الإسرائيلي منذ وجوده على أرض فلسطين رسميًّا عام 1948، وكذلك يؤثر في البعد الديني والقومي لسكان المنطقة.[6] وعلى المستوى الإنساني يمكن مشاهدة المشاعر والمواقف العالمية ضد الاحتلال في كل مكان، ولعل آخر الشواهد على ذلك كان في أمستردام في هولندا، عندما تصدّى مشجعون رياضيون للاستفزازات التي قام بها مشجعو الفريق الإسرائيلي، وكذلك ما حصل في فرنسا بالرغم من كل الإجراءات التي اتخذتها الحكومة الإسرائيلية

وهو مثال بالمناسبة أيضًا على الإخفاق المرجّح لكل عمليات التغطية التي تقوم بها الأطراف الرسمية على جرائم الاحتلال الإسرائيلي.[7]

وعلى المستوى الداخلي الفلسطيني ومع وجود انتفاضتين تاريخيتين في سجل نضال الشعب الفلسطيني، هما: انتفاضة عام 1987 وانتفاضة الأقصى عام 2000، فإن طوفان الأقصى مع الزخم الذي جاء به يعمل الآن على مراكمة الواقع الفلسطيني وشحنه بإجهادات وطاقات عظيمة يمكن أن تخرج من مخارج تنفس متعددة، أهمها ساحات الضفة الغربية والقدس ومناطق فلسطينيي 48. وكانت فصائل المقاومة الفلسطينية قد حاولت مرارًا إطلاق انتفاضة ثالثة بعد عام 2007، إلا لم تنجح في ذلك، ولكن بعد طوفان الأقصى يمكن الحديث بشكل أكثر ترجيحًا عن إمكانية تولّد انتفاضة من رحم هذا الطوفان المتجدد.

خاتمة

تشكل عملية طوفان الأقصى، التي نفذتها كتائب القسام بالتنسيق مع فصائل المقاومة الأخرى في غزة صباح 7 أكتوبر 2023م، نقطة تحول مهمّة على صعيد تغيير نموذج المقاومة، وإسباغ وعي جمعي جديد على المجتمع الفلسطيني. إن طوفان الأقصى، الذي استطاع أن يجمع كل الفلسطينيين تحت سقف واحد بعد عمليات الانتفاضة، هو التطور الوحيد الذي أحدث فارقًا كبيرًا في تاريخ المقاومة الفلسطينية بآثاره المحلية والإقليمية والعالمية. إن تدمير الأساطير التي خلقتها «إسرائيل» على مر السنين، وجر الإدارة الصهيونية إلى مناخ الخوف الوجودي الكبير- من أهم إنجازات المقاومة بعد 7 أكتوبر. ويشكّل طوفان الأقصى، الذي عطّل الفضاء المريح للقادة العرب وعناصر محور المقاومة، تحدّيًا حقيقيًّا؛ لأنه يواجه هاتين الكتلتين والعالم الإسلامي كله بواقعهما. كما أن طوفان الأقصى مهمّ للغاية؛ لأنه يسلط الضوء على هشاشة النظام الدولي، ويكشف عن قصور المنظمات الدولية، ويفتح الباب أمام التحول المنهجي، ويظهر اختلافه عن الصراعات المماثلة السابقة. في التحليل النهائي يمكن القول: إنّ الخطوة التي اتّخذتها المقاومة في غزة يوم 7 أكتوبر تتبوأ مكانة خاصة فريدة، بوصفها من أهم اللحظات الحاسمة في تاريخ الشرق الأوسط، حيث إنها هزّت النظام الإقليمي والعالمي بعمق، مثلما هزّت مفاعيل الصراع القديم بين الفلسطينيين والاحتلال الإسرائيلي، وهذا الأثر يحمل بعدًا تجدديًّا يتطور إلى حد أن آثاره ستكون محسوسة بشكل أكبر في السنوات التالية.

الهوامش والمراجع:

1. محمد شهيد علم، عرض كتاب: " الاستثنائية الاسرائيلية منطق الصهيونية الهدام"، رؤية تركية،
https://shorturl.at/QoODV
2. ساهر غزاوي، مآلات المشهد الإسرائيلي في معركة طوفان الأقصى، رؤية تركية،
https://shorturl.at/aOsys
3. المرجع السابق.
4. محمود الرنتيسي، طوفان الأقصى: المباغتة والتوقيت وهشاشة الاحتلال، الجزيرة نت، 10 أكتوبر
2023، https://shorturl.at/RHHxG
5. رون بن يشاي، الطريق طويلة نحو تحقيق أهداف الحرب، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 16 أكتوبر 2024،
https://mukhtaraat.palestine-studies.org/ar/node/35456
6. عاموس هرئيل، النجاحات الأخيرة في الحرب لا تجعل نهايتها قريبة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 11 أكتوبر 2024، https://mukhtaraat.palestine-studies.org/ar/node/35423
7. خارطة التظاهرات ضد الاحتلال الإسرائيلي، للمزيد انظر:
https://www.inss.org.il/publication/international-map-of-reactions-to-the-war/

Published by **SETA Foundation**

Edited by **Muhittin Ataman**

INSIGHT
TURKEY

Challenging ideas

on Turkish politics and international affairs

An insightful reference for 26 years

insightturkey.com

For subscription and editorial inquiries **contact us**
editor@insightturkey.com